الشعر في مصر

La Poésie en Egypte

١ — توطئة

يعلم الناطقون بالضاد الرقي الذي بلغ اليه المصريون في هذا العصر ، حتى ليظن القارئ ان الحضارة العصرية العربية في مصر ساوت ارقى عصور لغتنا في صدر الاسلام ، وربما سبقتها في بعض الفنون الفتانة ، فالرسم والحفر والنقش والغناء والضرب على آلات الطرب وتمثيل الوقائع على المسارح ، كل ذلك بلغ شأوا بعيدا في الاتقان جاوز ما كان يماثله عند السلف في عهد الخلفاء العباسيين واما الشعر فحدث عنه ولا حرج . كان الغرض في عهد العباسيين متاع ادب ، يباع ويشترى ، واغلب معانيه لا تتجاوز المدح والقدح ، التهنئة والرثاء ، الغزل والتشبيب الى ما ضارع هذه الابواب .

واما وصف الطبيعة وما يتجدد فيها من الاحداث والوقائع ، ووصف الحقائق التاريخية وتصوير اخلاق الانسان والحيوان والنبات والجماد ومحادثة النفس نفسها او نفوس الغير وابتداع المعاني الى ما دخل في هذه الموضوعات فلم يقل فيه الاقدمون شيئا كثيرا ، والذي قالوه لا يجاري ما ينشئه اليوم شعراؤنا ، فان معاصرينا اجادوا اي اجادة حتى انهم ولجوا كل باب وامعنوا في باطنه فلم يبقوا ولم يذروا واصبحوا اساتذة وجاروا ابلغ شعراء الافرنج المعاصرين .

ونحن لا نريد ان نتعرض لذكر ما امتاز به كل شاعر من شعراء وادي النيل اذ هذا يطول وانما نريد ان نشير هنا الى ما امتاز به احد نوابغهم الذي جاء بكل طريف تليد ، وعالج كل باب من ابواب المعاني العصرية ، فبرز على كل من حاول ان يجاريه بل جاوزه حتى بلغ ابعد مدى في المعنى والمبنى .

وانما نتعرض لذكر هذا البقري لانه اهدى الينا عدة منظومات من آيات شعره فتمكنا من التفرغ لمطالعتها ودرسها ومعارضتها بغيرها من وشي ابناء لغتنا في ربوع الفراعنة ولغات الاجانب فوجدناه ممن يفتخر بهم العصر والمصر .

وهذا الرجل النابه هو الاستاذ الكبير احمد زكي ابو شادي صاحب المنظومات

العديدة التي البسها من مخترعات براعته غلالة كلها لآلىء ودرر رطبة .

ولعل معترضاً يقول : (ان لغة العرب) تعرضت لهذا الموضوع ، اذ اظهر مصطفى افندي جواد ما في (الشفق الباكي) من المحاسن الفتانة والجواهر الغوالي فما معنى هذا العود الى الموضوع ؟ » .

قلنا : ان الاستاذ النقادة مصطفى افندي اشار الى ما في ذلك الكنز الثمين من الفرائد الابكار . لكنه لم يتعرض لمنزلة صاحبها وعلمه من جماعة الشعراء العصريين اخوانه ، ولعله فعل ذلك ليوسع لنا مجالا في هذا الميدان غير المجال الذي اظهر فيه مقدرة الاستاذ ابو شادي في ابتداع المعاني وافراغها في اجمل الصيغ واشهى النغمات المطربة للاذان والاذهان .

٢ — نظرة عامة في طبقات شعراء مصر العصريين

كان الشعر في مصر انحط انحطاطاً عظيماً حتى بلغ ادنى دركاته في عهد المماليك وعهد الترك ثم اخذ بالنهوض في عهد محمود سامي باشا البارودي (١٨٤٠ — ١٩٠٤) حتى قال فيه المنفلوطي : « شيخ شعراء هذا العصر واول من احيا سنة الشعر العربي بعد ما دارت الايام دورتها » ومن تلاميذه : حافظ ابراهيم وشوقي ومن طرس على آثار البارودي في رأس النهضة الاولى من النهضات الثلاث المعروفة في عهدنا هذا واصحاب هذه الطبقة استعاروا الديباجة العربية الصافية والمعاني البديعة السامية تلك التي اخترعها السلف في صدر ازدهار العربية .

واما النهضة الثانية فكان ابتداؤها على يد خليل بك مطران اذ اخذ يعاني طرزاً جديداً يحاكي به اسلوب الغربيين على اختلاف قومياتهم فاندفع وراءه ابو شادي وشكري (عبدالرحمن) والعقاد (عباس محمود) والمازني وغيرهم فكانوا يصوغون الاشعار الافرنجية فيفرغونها بقوالب عربية بديعة وكان الفضل لاصحاب هذه النهضة احياء الشعر حياة مصرية يتدفق فيها ماء الشباب والتجدد ثم نهض الشعر النهضة الاخيرة في شخص رئيسها وواضع لوائها العجيب الاستاذ ابو شادي فانتهت اليه الرئاسة اذ استقل في السنوات الاخيرة من جهة التفنن بابتكار ميادين جديدة واسعة ليجول فيها الشعر العصري فضلاً عن التعابير الحرة والمعاني الحديثة والاستعارات البديعة والتشابيه المنتزعة من البيئة الراقية العصرية فاخضع

النظم للشعر عوضا من ان يخضع الشعر للنظم كما فعله بعضهم ولا يزالون يفعلونه لانهم من الطائفة المقلدة تقليدا اعمى وليس من هؤلاء القرط المجددين المجتهدين . وهذا ما وسع افق الشعر العربي كثيرا حتى مده الى ما لا نهاية له وحفظ للغة كرامتها امام سيل العامية الجارف وامام جلاميد التتعلع التي يأتي بها الجامدون ويعترضون بها نهج التقدم الضروري لمن اراد هذه الحياة ومقارعة الامم التي تحاول قهرنا في عقر دارنا .

٣ — شهادات المجلات الكبرى

لعل احد القراء يتهمنا بالتحزب لحضرة صاحب السعادة ابو شادي ، إلا انه اذا اطلع على شهادات اصحاب المجلات الكبرى التي تصدر في مصر القاهرة يرانا قد قصرنا في ما سجلناه لفضله على اللغة والناطقين بها ، وعلى الوطن العربي وسكانه . فدونك الآن شهادة العصور ، فقد قالت :

الشفق الباكي

والشفق الباكي عنوان قصيدة من ديوان اليك بعض ابياتها :

لا الشعر شعر ولا الاوزان اوزان ... إن فاته من شعور الكون ميزان
هـذا هو الشفق الباكي بحرقته ... وهذه السحب فيها الدمع تيران
باتت عن الشمس فارتاعت افرقتها ... كما يراع لدفن الحسن هيمان .
وذلك الهيكل المصدوع يملؤه ... حزن ، وتطفو على مرآه احزان .
وهذه العهد — اللاتي يشقها ... ذكر ووجد — يراها الآن تحنان .
وهذه الشمس في الاجيال تحرسها ... كأنما هي بعد الله رحمن !

ثم يذهب بك في القصيدة من جمال الفن الى جري الغرير ومن التمثال الساكن الى السحب في عليائها ومن البلاد الى القرية ومن التل يموت عند تنفس الصباح موت الشريد الى ان يرجع الى نفسه فيقول :

اما انا فانا الباكي الصبا حرقا ... وان تعيد مضاع الانس اشجان
والناديء الحب ، والحب الغزير اذا ... ولى فما لشهيد الحب سلوان
كأنما الشفق الباكي يمثلني ... لكن حزني اصناف والوان
الارض تشجى التياعا للفراق وان ... جاء الصباح بوصل منه تزدان
فكيف بي وانا المحروم في زمني ... وكل عمري تباريح وحدثان ؟!

هذا هو الشفق الباكي . ولا شك في انه بكاء كثير الالوان مثير النفس يبعث فيها من المعاني ويصبغها بالوان قل ان يبعثها في النفس غير شفق باك كشفق ابي شادي. ولولا انه اصبح لكل شاعر « ازمة » اصبحت لاسمه بمثابة اضافة الى مضاف اليه كما يقال شوقي امير الشعراء وحافظ شاعر النيل ورامي شاعر الشباب ، لقلنا بحق ان ابا شادي شاعر الوجدان. على ان لابي شادي عندي بعض الهنات التي لا اظن ان كثيرا من الناس يراها فيه. وإحدى هذه الهنات تصريفه المعنى في الفاظ اضيق من ان تحمل المعنى الذي يجول في مناحي خياله الخصب الوسيع . لذلك قد تقف امام بيت من ابياته حائرا كيف تستشف مجمل ما قام في خياله من الفاظ يظهر فيها جليا انها اضيق من أن تعبر عن المعنى تعبيرا تاما . ولست ادري اهذه من الشاعر منحى من مناحي الكمال ام انها هنة تؤخذ عليه . على أن هذا في شعره قليل .

على انني لا استطيع ان الم في صفحات قليلة كهذه ببعض ما في الشفق الباكي من مناحي الابتكار وحسن الوضع وجمال النسق وقوة الشاعرية. فاني ولا شك اعتقد ان ابا شادي مطبوع على الشعر . وقد تنقلت هذه الفكرة عندي مذ كنت في المدرسة الابتدائية فكنت اسمع ان شابا اسمه ابو شادي ينظم الشعر ويقول مقطوعات كانت تستهوي من عواطفي بقدر ما في الشباب من عواطف وكنت احفظ وفريقا من صحبي بعض ما يقول من ابيات قليلة من الشعر. ولقد طاوعته هذه السليقة طوال ايام عمره فنمت معه وشبت فتية مشبوبة. فهو الآن من اكثر الشعراء شعرا. وفي الوقت ذاته من اجودهم واطبعهم على نظم القريض .

واني ان ارسلت هذه الكلمات فانما ارسلها على سجيتها لا اقصد بها تحليلا ادبيا ولا تقريرا لقواعد يصح ان يقوم عليها النقد اذا ما اردت ان يكون موضوعه شعر صديق اجل فيه الخلق الكريم وصفاء النفس من خبائث علقت بنفوس غيره من شعراء هذا الجيل فبدلت حسنات ما يقولون بسيئات ما تعمل فيهم البيئة والوراثة إنما اصف صورة ما استحالت اليه نفسي وانا اقلب ديوان الشفق الباكي ولذلك لا تجد في الشفق الباكي من بكاء امر ولا رثاء ابلغ من رثاء ناظمه للاخلاق . وفي ظني ان ما اصابه من اخلاق الناس كان بالغا . فصدر عنه في شعر طلي واضح

المعاني بكل هو خير ما ترثى به الفضيلة في عصر نحن احوج فيه الى الاخلاق منا الى العلم والفلسفة واني لاحسب انه يخلق بنا ان نكون في تواضعنا على ضعف . من ان نكون امة من العباقرة يأخذ بتلابيب افرادها الغرور الذي لا ارى له من سبب إلا الجهل بالاشياء والجهل بالاقدار والجهل بالمقاييس .

اني وان اكبرت في ديوان ابي شادي من شيء فانما اكبر فيه تواضع الاديب المرضي والموعظة الحسنة يسوقها في غير تكلف وفي حسن من الاداء . وانا اكبرت فيه خلقا فانما اكبر فيه الحلم وكرم الاخلاق والتسامح . تلك الصفات التي قد يراها البعض ضعفا ولكنها لن تكون كذلك إلا عند اللئيم ولا تكون إلا قوة ولكن في نفس الابي الكريم .

هذه نظرة عجل في الديوان وفي ناظمه . وما اظن الشعر الا صورة النفس . وما اظن ان نقدا يسوق في الشعر من غير ان يتناول شخصية الشاعر يكون كاملا غير ان هذه النظرة العجل سوف تتبعها نظرات تحلل فيها بعض القصائد والمقطوعات التي تنضوي عليها دفتا الديوان الكبير .

السريطاء او السويطاء

وقع جدال بيننا وبين احد الادباء الوطنيين المتحزبين للاجانب اذ يزعم انه لا يحسن بنا ان ننقل الى لساننا الالفاظ الغريبة . بما يقابلها عندنا من الحروف بل ان نؤخذ بصورها بلا تغيير البتة وندخل في لغتنا . وسبب زعمه هو ان العربية بعيدة عن ان تؤدي ما عندهم من الاوضاع المختلفة المعاني والمباني . ثم قال ومن جملة ما عندهم انهم نوعا من المرقة يكثرون فيها الحبوب او الخضراوات فيجعلون فيها بصلا وحمصا وكراثا وغيرها اي حشائش وبقولا مختلفة ويسمونها Julienne ولم تكن العرب تعرف ذلك فمن الواجب ان نسميها نحن ايضا جولياتة فقلت له : ياسيدي ان سلفنا العرب قد سبقوا الافرنج بمئات من السنين في صنع هذه المرقة ويسمونها (سريطاء أو سويطاء) فكيف تنعى على السلف امورا هم ابرياء منها . قال في تاج العروس في مادة سوط : السويطاء مرقة كثر ماؤها وكثرها اي بصلها وحمصها وسائر الحبوب سميت لانها تساط اي تخلط وتضرب . وقال ابن دريد : هي السريطاء بالراء وقد مر ذكره . اه